نافذة للساحة الخلفية

عرض/ وديع عواودة

تحويله إلى دولة صديقة لها تنسج معها علاقات سلام.

المؤلف يثير رافيد ضابط الاستخبارات المتقاعد المعروف بتسميته المنتحلة (أبو داهود)، مسؤول (أسطوري) عن تجنيد العملاء، وقد شغل مناصب استخباراتية بارزة منها مدير إرسالية الموساد في بيروت.

في كتابه يفتح رافيد نافذة على الصورة البشعة للحراك الإسرائيلي في لبنان طيلة عقود، في إطار استعراض مسيرته الذاتية المليئة بالمغامرات والقصص المروية بسرد روائي مثير.

لكن الكتاب يركز على عمليات التجنيد البشعة لوكلاء الاستخبارات الإسرائيلية من بين اللبنانيين والتي تحثهم وتدفعهم نحو خيانة شعبهم ووطنهم، ولكنها ما تلبث أن تلقي بهم في سلة المهملات. ويستمد الكتاب قوته من الكشف عن حماقات إسرائيل في لبنان على يد من يعتبر مسؤولاً مخضرما ذا مصداقية استخباراتية بحكم تجاربه ومناصبه.

على غرار باحثين وكتاب إسرائيليين آخرين خاضوا التجربة اللبنانية، يصف هذا الكتاب بروح نقدية أوهام إسرائيل بجعل لبنان دولة حليفة أو صديقة من خلال بناء نظام سياسي موال لها بقوة السلاح، واعتماداً على عكازة الكتائب اللبنانية، وسط تجاهل الواقع الاجتماعي السياسي اللبناني.

ويقر بوضوح أن إسرائيل جندت عملاء عربا مقابل رشوات مالية وجنسية، وفي لبنان جندت وكلاء من بين القتلة وتجار المخدرات والشاذين جنسياً.

رافيد يعرض نفسه كمن بادر وولّد العلاقات العميقة بين إسرائيل والمسيحيين في لبنان بدءاً من 1975 في أعقاب انحلال الجيش اللبناني ونشوب الحرب الأهلية. ويستذكر أن المسيحيين في جنوب لبنان توجهوا إلى إسرائيل خلسة طالبين المساعدة، لافتا أنه خشي أن يملأ الفلسطينيون الفراغ الناجم عن حل الجيش اللبناني.

وبعد ذلك بدأت إسرائيل في نهاية سبعينيات القرن الماضي تحويل السلاح إلى المسيحيين في الجنوب، بل وشاركت في القتال عبر القصف

- الكتاب: نافذة للساحة الخلفية.. تاريخ علاقات إسرائيل ولبنان.. حقائق وأوهام
- المؤلف: يئير رافيد
- اللغة: العبرية
- عدد الصفحات: 400
- الناشر: دار النشر أوفير بخوريم، تل أبيب
- الطبعة: الأولى 2012

المدفعي والجوي ضد الفلسطينيين، إضافة إلى المساعدات المدنية.

الجدار الطيب

وفي إطار هذه المساعدات أقيم ما يعرف باسم (الجدار الطيّب) رسمياً بغية إدخال لبنانيين إلى إسرائيل للعمل والعلاج، إذ يكشف المؤلف – وهو رجل استخبارات مخضرم– للمرة الأولى حقيقة أن ذلك تم من طرف الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية لتحقيق هدفين: أولهما التمويه وإخفاء التحركات الإسرائيلية وتجنيد وتشغيل المزيد من العملاء، بينما يكمن الثاني في مكافأة القرى الجنوبية التي أبدت (تعاملاً إيجابياً) مع إسرائيل وزوّدتها بمعلومات هامة حول الفلسطينيين.

ويستدل من الكتاب أن إسرائيل شرعت في اعتماد سياسة (فرق تسد) وتأجيج الخلافات الطائفية مبكراً، فيكشف عن نقل 30 مقاتلاً بقيادة لبناني يعرف باسم (أبو إميل) من بيروت إلى جنوب لبنان على متن بارجة عسكرية. وبأوامر إسرائيلية اقتحم هؤلاء قرية حنين الشيعية يوم 17 تشرين الأول/أكتوبر 1976 لأنها تعرقل حركة المرور بين القرى المسيحية. واقترف أبو إميل مذبحة بحق رجالها، وبعد يومين وقعدت عمليات انتقامية في القرية المسيحية عيشية.

المؤلف الذي خدم في وحدات عسكرية خاصة واستخباراتية آخرها الوحدة 504 التي شغل فيها منصب المسؤول الأعلى عن تجنيد العملاء، يصف تجنيد الخونة للعمل ضد شعبهم بالسباحة في مياه آسنة.

تجار المخدرات

ويروي المؤلف للمرة الأولى كيف جند الموساد والاستخبارات العسكرية تجار المخدرات الكبار في الشرق الأوسط كعملاء، ومن بينهم: محمد بيرو، ورمزي نهارة، وقيس عبيد في لبنان. ويشير إلى أنه في عام 1976 جنّد بنفسه محمد بيرو الذي كانت دول كثيرة والشرطة الدولية (إنتربول) تلاحقه.

ويذكر أنه التقى بيرو في أحد الفنادق شمال إسرائيل وجنده كعميل مقابل تعهد بعدم التدخل في عمله. وهكذا تحول بيرو إلى عميل إستراتيجي للوحدة 504، ودأب على اصطحاب عسكريين لبنانيين وغيرهم ممن كانوا متعلقين به وبأعماله وساهم في تعاونهم مع إسرائيل. وكما هو الحال في معظم الحالات التي يلقى بها العملاء نهاية مأساوية، قضى بيرو آخر أيامه في السجن الإسرائيلي ذليلاً حتى مات.

وعن ملابسات ذلك يقول المؤلف إن بيرو نسي –على ما يبدو– الاتفاق المذكور معه، وتورط في محاولة تهريب طن حشيش إلى إسرائيل، وبعد اعتقاله طلب لقاء رافيد في سجنه وأقسم بشرفه وبالنبي أن صفقة الحشيش تمت بواسطة أحد أبنائه ودون علمه، طالباً المساعدة والرحمة. ويتابع «لم أصدقه، وقررت أنه لا يهمني أن يموت موتاً بطيئاً داخل السجن».

ولم تنته قصة تعاون بيرو مع إسرائيل بموته، فقد ورث ولده كايد بيرو تجارة المخدرات، وبعد انسحاب إسرائيل من لبنان عام 2000 قرر الانتقام منها لاعتقالها والده، فتواصل مع تاجر مخدرات آخر يدعى قيس عبيد، وكلاهما قدم خدماته بيد حزب الله، فاستغلا معلوماتهما الوافرة حول إسرائيل وخططا لعملية جريئة انتهت بخطف الجنرال احتياط الحنان تنباوم، في عملية ألحقت ضرراً فادحاً بإسرائيل.

كميل شمعون

ويكشف الكتاب للمرة الأولى تفاصيل العلاقات السرية للرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون وأوساط لبنانية بإسرائيل طيلة سنوات. وبحسب الكتاب، بدأت هذه العلاقات في خمسينيات القرن الماضي حينما زودته إسرائيل بالسلاح دعماً له ضد خصومه اليساريين.

الكتاب الذي يعتمد السرد الروائي ويورد الكثير من القصص بطبيعة الحال كشأن الكتب الاستخباراتية، يشير إلى أن شمعون كان مغرماً بصيد البر وبحوزته بنادق صيد نادرة وثمينة تتيح له الصيد بهدوء، وخلال ذلك كانت تتم لقاءاته برافيد.

الوحل اللبناني

في لهجة دفاعية عن النفس، يقول المؤلف إنه لم يوص يوماً بتدخل عسكري في لبنان، محاولاً تقليل دوره في تورط إسرائيل بالوحل اللبناني لاحقاً. ويرى أن إسرائيل بنظرة إلى الخلف فشلت في لبنان نتيجة «دمج قاتل» بين أطماع وزير الدفاع في حينه أرييل شارون بفرض نظام سياسي جديد في لبنان، وبين الروح الرومانسية لرئيس الحكومة الراحل مناحيم بيغن الذي رأى بنفسه حامياً للأقلية المسيحية في لبنان تمهيدا لعقد اتفاقية سلام معها.

ويحمّل الكاتب الموساد مسؤولية فشل إسرائيل في لبنان بعدما آمن جهلاً بقدرتها على تغيير الواقع السياسي هناك، وبعد انبهار رجاله «بسحر القيادات المسيحية» في بلاد الأرز. ويشير إلى أنه بعد اجتياح 1982 واحتلال أجزاء من بيروت، استدعي على عجل من أوروبا لإقامة إرسالية للموساد في العاصمة اللبنانية بهدف استغلال القرب الجغرافي وتجنيد عملاء لهم صلة بسوريا. وفعلاً أسس مكتب الموساد في بيروت داخل مقر قائد الكتائب اللبنانية إيلي حبيقة.

وفي مذكراته يعترف رافيد بما كان معروفاً بأن القوات الإسرائيلية اهتمت بنقل أعضاء البرلمان اللبناني تحت تهديد السلاح كي يدلوا بأصواتهم لبشير الجميّل رئيساً للبنان والذي قتل عقب (انتخابه) بتفجير مقره يوم 14 أيلول/سبتمبر 1982.

صبرا وشاتيلا

في الكتاب يكمل ويعزّز رافيد ما تحتويه محاضر إسرائيلية تاريخية يكشف عنها تباعاً هذه الأيام (أرشيف لجنة كاهان الرسمية للتحقيق في مجزرة صبرا وشاتيلا)، ويعترف بأنه كان شاهداً على استعدادات الكتائب لارتكاب المجزرة في مخيمي صبرا وشاتيلا يوم 16 أيلول/سبتمبر 1982.

ويستعيد ما يستبطن إدانة جديدة شبه صريحة لإسرائيل إذ يقول «بعد اغتيال الجميّل تنبهت فجأة في أحد الأيام إلى أن جماعة الكتائب بقيادة حبيقة يعدون سكاكينهم وهم يقولون لي: اليوم حان دور السلاح الأبيض، في إشارة إلى نيتهم ارتكاب مذبحة دون الكشف عن هوية هدفهم. وكان واضحاً بالنسبة لي أنهم ذاهبون إلى ارتكاب مجزرة، لكنني لم أتعّمق في البحث، فأنا مجرد ضيف لديهم، كما أن هذا ليس من شأني أن أعرف هل كانوا في طريقهم إلى صبرا وشاتيلا».

نقد ذاتي

يستبطن الكتاب نقدا لاذعاً للمؤسسة الاستخباراتية الإسرائيلية خاصة في وحدة تجنيد العملاء 504 اليوم، ويقول إن ضباطها يتقنون فنون الحاسوب لكنهم يجهلون الميدان. غير أن انتقاداته الأشد تتجلى بالإشارة إلى معاملتها المشينة للكثير من عملائها السابقين الذين تناصبهم الإهمال وتتخلى عنهم وتكذب عليهم.

ويقول بوضوح إن هذه الوحدة تنتهج الكذب والغش والخداع من المستوى الأكثر هبوطاً في تعاملها مع عملائها، خاصة اللبنانيين المقيمين الذين يكابدون اليوم أوضاعاً مأساوية في إسرائيل.

كما يعتبر أن توجهات وأخطاء إسرائيل شكلت دافعا لتشكيل حزب الله تحت أنفها، ويوضح أن الشيعة استقبلوا الجيش الإسرائيلي المحتل بالأرز، لكن نظرته لهم لاحقاً كانت مخزية نتيجة عمليات تفتيش مهينة عن السلاح في بيوتهم. وللتأكيد على أهمية ذلك يضيف «إذا انتزعت من اللبناني بندقيته أو مسدسه فهذا بالنسبة له كأن تقص نصف شاربه، فمن هذه النقطة بدأ الشيعة في الجنوب ينشطون ضدنا».

وبخلاف شائعات عن كونه انفجاراً جراء أنابيب غاز، يؤكد رافيد أن تدمير مقر الحكم العسكري الإسرائيلي في صور يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1982 كان نتيجة عملية استشهادية خطط لها قائد الذراع العسكري لحزب الله عماد مغنية.

ومن جملة انتقاداته للمؤسسة الاستخباراتية الإسرائيلية، يقول رافيد إنها لم تقم بواجبها كما ينبغي بحثاً عن الأسرى والمفقودين، وخاصة ملاح الجو رون أراد، مشيراً إلى أن الموساد سدد (ضريبة شفوية) فحسب في هذا السياق.

واستناداً إلى خبرته ومعلوماته، فإن أراد اختطف من لبنان على يد إيران التي ما لبثت أن أعادته إلى لبنان وقتلته هناك خوفا من انفضاح السر.

الهروب

لكن جوهر نقده في السياق اللبناني يوجهه إلى الانسحاب الإسرائيلي عام 2000، إذ يعتبره أمراً مخجلاً ومعيباً، ويستذكر مشاهد الفرحة الهستيرية التي غمرت الجنود الإسرائيليين وهم يهاتفون أمهاتهم ويبشرونهن بالعودة إلى البيت. ويضيف جازماً «مشاهد جنودنا الذين بكوا فرحاً مست بهيبتنا وقوة ردعنا، وزودت الانتفاضة الفلسطينية الثانية بمواد الاشتعال».

كما يقر بأن تعامل إسرائيل مع عملائها في جيش لبنان الجنوبي أمر موجع جداً، لافتاً أنها تركتهم لوحدهم وتخلت عنهم بعدما قاتلوا إلى جانبها 25 عاماً، معتبرا ذلك «هذه خيانة لا مثيل لها». ورأى أن الحل الأمثل كان يكمن في مساعدة المسيحيين في جنوب لبنان على حماية أنفسهم فقط.

في كواليس الشرق الأدنى

عرض/بوعلام رمضاني

- الكتاب: في كواليس الشرق الأدنى.. مذكرات صحفي دبلوماسي
- المؤلف: إريك رولو
- عدد الصفحات: 433
- الناشر: فايار، باريس
- الطبعة: الأولى 2012

يكفي القول إن مؤلف الكتاب إريك رولو هو الصحفي الغربي الوحيد الذي حظي بدعوة شخصية من الرئيس جمال عبد الناصر لمحاورته في صيف عام 1963 للتأكيد على الأهمية القصوى لكتابه الذي يعرف بتجربة صحفية غير مسبوقة غطت أحداثاً عربية هامة وعلى رأسها الصراع العربي الإسرائيلي المستمر ووجوده الميداني والمثالي في البلدان المتنازعة والمضطربة على مدار نصف قرن.

الصحفي الفرنسي اليهودي إلي ريفول -اسمه الحقيقي- يقدم بأسلوب الصحفي والدبلوماسي الخبير والمتمرس معلومات في غاية الدقة عن فصول سياسية وشخصية مكنته من معايشة وتغطية حربي عامي 1967 و1973 الأمر الذي مكنه من دخول كواليس القادة الذين صنعوا الأحداث من أمثال ليفي إشكول وموشي دايان وغولدا مائير ومناحيم بيغن وناعوم غولدمان وياسر عرفات وأرييل شارون وأنور السادات وإسحق رابين وشمعون بيريز وقادة عرب وفلسطينيين وأميركيين آخرين رسم أمزجتهم وهيئاتهم ونفسياتهم وتحدث عن مواقفهم وأفكارهم بقلم سيال وشفاف مازجاً بين السيرة والذاتية والتحقيق والتعليق والبحث.

ويعود تاريخ تميز رولو الماركسي التوجه في الصحافة السياسية بعد أن كلفه مؤسس صحيفة اللوموند هوبير بوف ميري بتغطية الشرق الأوسط وعمره لا يتجاوز الثلاثين وتفرده كصحفي متعاون بمقابلة مع حسن البنا عام 1949 قبل طرده من مصر بلد مسقط رأسه عام 1951. رولو الذي أنهى حياته الصحفية سفيراً في تونس وتركيا اعتباراً من عام 1983 في عهد الرئيس فرنسوا ميتران مؤلف كتابي (فلسطينيون دون وطن) بمشاركة أبو إياد، الصادر عام 1978 و(الفلسطينيون) الصادر عام 1984، وصاحب مساهمات مرجعية في منشورات أوروبية وأميركية وعضو في مركز العلاقات الدولية لنيويورك.

لقاء عبد الناصر

المؤلف الذي عاد إلى مسقط رأسه بفضل عبد الناصر، انطلق متحدثاً عن مقابلة عبد الناصر بعد تهيئة مهد لها كل من لطفي الخولي وحسنين هيكل من خلال الزيارة التي قام بها الأول إلى باريس بتكليف من الثاني، منبهاً إلى خلفية الدعوة التي هدفت إلى توظيف مراسل لوموند الصحيفة الشهيرة لإعادة العلاقات مع فرنسا الديغولية ومخاطبة الغرب الذي كان معادياً للدكتاتور المصري، ومعرجاً على خلاف الرئيس مع الماركسيين والليبراليين والإسلاميين الذين كانوا مضادين لمسار الوحدة القومية المفروضة بروح بونابارتية ومع البعثيين الذين دخلوا على الخط لمنافسته قومياً بعد الإطاحة بعبد الكريم قاسم وإفشالهم الوحدة المصرية السورية.

أعجب المؤلف بالزعيم الذي وجده يعيش حياة عائلية بسيطة في منشية البكري وبقدرته على الإصغاء لكنه لم يستسغ عدم تردده في طرح أسئلة شخصية عليه تتعلق بأصله وعائلته الأمر الذي فهمه على أنه أسلوب يميز القادة الكبار الذين يجيدون فن الاتصال والإغواء.

مصر للمصريين

المؤلف الذي أفرد صفحات عديدة لذكرياته المهنية والشخصية و(لكولسته) في فندق سميراميس مع شخصيات أصبحت مرموقة كالأخضر الإبراهيمي وجلال الطالباني ومهدي بن بركة، توقف مطولاً عند الشيوعيين الذين شكلوا نقطة سوداء في سجل مجد الزعيم المصري على حد قوله، وفعل الشيء نفسه بتناوله إنجازات فقيد مصر والأمة العربية الذي أعاد مصر للمصريين بتحسينه حياة البسطاء ونشر الثقافة ودمقرطتها وتأميم قناة السويس وبناء السد العالي بمساعدة الحلفاء الروس الذين وقفوا إلى جانبه في وجه عدو غربي متغطرس، وذلك ما أثبتته الزيارة التاريخية التي قام بها الزعيم الروسي خروتشوف إلى مصر وقام بتغطيتها المؤلف باعتباره صحفياً كان دائماً على موعد مع الأحداث التاريخية العربية والكواليس الشرق الأوسطية على حد تعبير ألان غريش كاتب المقدمة.

بعد مسح شامل لمصر عبد الناصر بإيجابياتها المذكورة وسلبياتها المتمثلة في خروج اليهود والأقليات الأوروبية نتيجة سياسة التمصير الشاملة، لم تسلم إسرائيل التوراتية والمتطرفة دينياً من قلم المؤلف الذي حل بالقدس في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1965، ووجد المؤلف في رأي غولدا مائير التي حاورها -"يوم توقفت الحياة بمناسبة إحياء عيد شابات في مطبخ بيتها والسيجارة في فمها على حد تعبيره- الدليل على أن لا معنى لإسرائيل دون التوراة الأمر الذي أكده لاحقاً بن غوريون في حوار أكد فيه للمؤلف في العام المذكور نفسه أسوة بكل القادة الصهاينة أن التوراة هي إحدى القواعد الأيديولوجية للدولة إلى جانب الجيش والمدرسة وعلى الدولة الإمساك بالدين في يدها لأن التخلي عنه يهدد المشروع الصهيوني والحرب الدائمة تعزز غريزة الحياة وتثير التضامن اللا مشروط وهذا ما بينه محللون اجتماعيون بعد حروب 1948 و1956 و1967 ومن بينهم مارك هلال في كتابه (إسرائيل في خطر السلام) الذي أكد فيه أن «السلام مع العرب يقتل المشروع الصهيوني».

إسرائيل المعتدية

بعد أن وقف المؤلف عند كل أشكال التمييز العنصري الصهيوني والحياة البائسة للفلسطينيين، انتقل إلى حيثيات حرب الستة أيام التي اندلعت في الخامس من حزيران/يونيو عام 1967 وهو نائم في أحد فنادق القاهرة. انطلاقاً من هذا العام بدأ المؤلف في الكشف عن ما يبرر عنوان كتابه قائلاً على ألسنة مقربين من عبد الناصر إن الزعيم المصري حاول تجنب الحرب مع إسرائيل قدر الإمكان لوعيه بعدم تكافؤ ميزان القوة، وإن الواقعية كما كتب هيكل في الأهرام فرضت نفسها على مصر التي كانت يومها أمام تحديات مواجهة واشنطن والإصلاحات الضخمة وتبعات فشل الوحدة مع سوريا والتحمس القومي القائم على مزايدات متبادلة.

عبد الناصر -حسب المؤلف- راح وقتها يستفز إسرائيل وواشنطن بدعمه حركات التحرر وإصغائه لدمشق وموسكو وتصديقه ادعاء هذه الأخيرة بحشد إسرائيل قواتها على الحدود السورية وإطلاق سراح الشيوعيين، ومقتنعاً في الوقت نفسه أن واشنطن كانت تدعم الإخوان المسلمين ضده فضلاً عن تواطؤ إعلام الدول العربية المحافظة بترويجها خطاب عدم تحمس عبد الناصر لفكرة تحرير فلسطين بالقوة العربية الموحدة واعتباره عرفات رجلاً استفزازياً وخطيراً.

رغم كل ما قيل من الجانب المصري أو الإسرائيلي الأميركي، أكد المؤلف على لسان رابين أن خطاب الحرب الوقائية لم يكن إلا تغطية على النية الحقيقية والمبيتة لإسرائيل بضرب مصر عبد الناصر الذي لم يكن يريد الحرب على حد تصريحه لصحيفة لوموند عام 1968 من خلال مراسلها المؤلف الأمر الذي أكده مجدداً بيغين عام 1982 بقوله «حشد القوات المصرية لم يثبت نية عبد الناصر بالبدء بالحرب ولنكن أمناء ونعترف أننا نحن الذين بادرنا بالحرب».

وحتى يؤكد المؤلف صحة نية الصقور الإسرائيليين مثل شارون وبن غوريون وبيغين، أضاف أن الثاني كان على علم بما كان يحاك في الكواليس قبل تهميش الحكومة واتخاذ صقور أركان الجيش والموساد بدعم من وسائل الإعلام قرار الحرب ضد مصر وتركيعهم الرئيس الأميركي جونسون الذي لم يكن متحمسا للحرب.

هزيمة 67 كتاريخ مفصلي

تناول المؤلف في فصل (حرب الست ساعات) سياق الهزيمة المصرية المتوقعة والسريعة التي تطلبت ست ساعات فقط لتدمير القوات الجوية المصرية و24 ساعة فقط لدخول سيناء وقطاع غزة بالتزامن مع شروع وزير الدفاع الجنرال ديان في إرسال قوات عسكرية إلى الأردن وسوريا متأكداً من تحقيق انتصار آخر.

رداً على سخط الشارع المصري ومعترفاً بمسؤوليته عن الهزيمة النكراء، لم يتردد عبد الناصر في الإعلان عن الاستقالة باكياً والتي عاد عنها نزولاً عند نفس الشارع الذي طالب الزعيم بالبقاء وتجسيداً لقول أحد المثقفين المناهضين له «يمكن انتقاد الرئيس والتنديد به لكن لا يمكن لفظه وإبعاده إذا أخطأ لأنه هو الذي أعاد الكرامة للمصريين البسطاء».

حديث المؤلف عن فرضية حدوث مؤامرة عسكرية داخلية ضد عبد الناصر كانت من إحدى إضاءاته التي تركها معلقة واكتفى بالقول إن «الرئيس عبد الناصر قد نبه قيادة أركان الجيش يوم الثاني من حزيران/يونيو إلى أن إسرائيل ستهاجم مصر يوم الخامس وأن عناصر عسكرية محافظة لم تكن راضية على توجهه الاشتراكي وأنه شعر بندم كبير لوضعه ثقة مفرطة في صديقه الدائم المشير عبد الحكيم عامر الذي عرفه 1940 في ثكنة بالسودان».

بعدة هزيمة الخامس من حزيران/يونيو، أشار المؤلف إلى توقف الإعلام المصري عن الحديث عن تحرير فلسطين كلية وزوال إسرائيل وإلى اتفاق عبد الناصر مع الملك حسين على استبدال كلمة السلام بالصلح مع إسرائيل على هامش قمة الخرطوم الأمر الذي مهد لاحقاً لمسار الاعتراف بإسرائيل تطبيقاً لتوصية القرار 242 الأممي وللسلام معها بعد تصفية العهد الناصري على يد السادات الذي وقع اتفاقية كامب ديفيد منفرداً ومستخلصاً درس هزيمة حزيران/يونيو التي اعتبرها المؤلف على لسان الكثير من المؤرخين والزعماء وعلى رأسهم الجنرال ديغول تاريخ بداية تحالف إستراتيجي أبدي بين واشنطن وتل أبيب وميل كفة ميزان القوة العالمي لصالح الغرب.

حرب 73 والسلام غير المجدي

مخلفات ونتائج هزيمة عام 1967 التي تمثلت في تحول القدس إلى عاصمة إسرائيلية أبدية واحتلال سيناء والضفة الغربية والجولان وانهيار النظام الناصري ومعه القوى الوطنية واليسارية والعلمانية والبعثية والشيوعية وبروز التيار الإسلامي وتوحد يهود العالم عن الدفاع عن إسرائيل بغض النظر عن ألوانهم السياسية، حقائق لم يكن من شأنها إلا تعميق مسار الهزيمة العربية الأمر الذي أثبتته السبعينيات من خلال المواجهة الدامية بين الفدائيين الفلسطينيين والملك الأردني الذي خرج منتصراً عند سحقهم في أيلول الأسود من عام 1970 واندلاع الحرب اللبنانية الأهلية عام 1975 كتعبير عن الشرخ الدراماتيكي العربي حيال نوعية المواجهة التي كان يجب انتهاجها ضد إسرائيل.

بعد فشل خطة روجرز الأولى والثانية وتلاعب كيسنجر المزدوج بالعرب من أجل إسقاط كل مشاريع السلام رغم النية المصرية الصادقة ووفاة عبد الناصر بعد حرب إبادة إسرائيلية قاسية، لم يتردد السادات البراغماتي الذي خلف ناصر في القضاء على إرث عبد الناصر داخلياً وخارجياً في لمح البصر والخضوع للأمر الواقع الإسرائيلي بعد حرب عربية جديدة كان عبد الناصر قد بدأ يتهيأ لها، وهي الحرب التي بدأها الجيش المصري منتصراً ومحدثاً المفاجأة بعبوره قناة السويس وأنهاها منهزماً عربياً في رمضان- تشرين الأول/أكتوبر من عام 1973.

جسد السادات أولوية أولوياته -على حد تعبير المؤلف- وسارع بإبرام سلام مصري إسرائيلي منفرد تحدث عن الإسراع في بعثه لدبلوماسيين كبيرين أثناء جنازة عبد الناصر تحت وطأة إيمانه أن واشنطن تملك 99% من أوراق الشرق الأوسط ويأسه من مقاربته الدبلوماسية ومن العرب الذين طالبهم بالضغط على إسرائيل بالتوقف عن تصدير النفط للغرب.

تحقق السلام المصري الإسرائيلي عام 1977 على أنقاض أوهام ساداتية وتبعه اتفاق أوسلو عام 1993 الذي لم يغير شيئاً من حقيقة رفض إسرائيل لسلام حقيقي وشامل مع الفلسطينيين في ظل موازين قوة استمرت في صالحها أكثر من أي وقت مضى، وكانت اتفاقية أوسلو -حسب رولو- تقدماً نوعياً بعد اعتراف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية لكنها أكدت في الوقت نفسه عدم رغبتها في سلام حقيقي.

جدة.. الإنسان والمكان

عرض/ ياسر باعامر

-الكتاب: تاريخ ما لم يؤرخ.. جدة الإنسان والمكان
-المؤلف : عبد الله مناع
-عدد الصفحات: 281
-الناشر: دار المرسي للنشر والتوزيع
-الطبعة: الأولى، ديسمبر 2011

ربما الميزة التي ينفرد بها كتاب المؤرخ عبد الله مناع عن غيره من التدوينات التاريخية التي تحدثت عن تاريخ المدينة الساحلية جدة الواقعة عند منتصف الساحل الشرقي للبحر الأحمر، أنه لم يعتمد في راويته لأركان تاريخ هذه المدينة على (تفاصيل جامدة)، والتركيز على (الذات المكانية) الأثرية، حيث تحتوي المنطقة التاريخية الواقعة في قلب المدينة على قرابة 500 موقع أثري من الزمن الماضي.

لكن المؤلف الذي عاش تفاصيل حكاياته عن القديم الجديّ، أخذ منحى مغايراً -وهو ما يحسب له- في سياق استدعاء النص التاريخي لشخصيات مثلت بطولة حقيقية في سرده لذاك التاريخ القصصي.

ومن يقرأ الكتاب من صفحته الأولى يدرك جيداً أن المؤرخ مناع لديه حزمة أهداف تمثل (البنية التحتية) للعوائل الحجازية التي لعبت

دوراً مهماً في صناعة (تاريخ ما لم يؤرخ). كما أن كتاب المؤلف أيضاً رسالة واضحة للسلطات المحلية المختصة بالسياحة والآثار بضرورة إعطاء عوائل الحجاز ومواقعه الأثرية بعضاً من أهميته في التدوين التاريخي الرسمي لما يمثله من عمق مهم في الحالة الداخلية.

حكاية الكتاب

حكاية هذا الكتاب بدأت في أيلول/سبتمبر 2006 حينما دعت (إذاعة البرنامج الثاني من جدة) المؤرخ مناع لتقديم أحاديث يومية عن جدة وحياتها وحاراتها وأهلها، وأن تلقى بصوت المؤلف خلال أيام شهر رمضان من ذلك العام لإذاعتها قبل الغروب، بعنوان (لست أدري كيف ولد؟).

يؤكد مناع في جزء الكتاب الأول أن أحاديثه في الإذاعة أصبحت مشروع كتاب قائلاً: «عندما أتأمل الآن أسباب لهفتي وشغفي عند استقبالي لدعوة الإذاعة لي بالحديث عن جدة وحاراتها وحياتها وبعض تاريخها وناسها، أجد أمامي عشرات الأسباب الإنسانية والذاتية التي أشعلت تلك اللهفة وأوقدت ذلك الشغف، لعل أولها عطشي للحديث عن جدة الذي لم تروه كل مقالاتي ولقاءاتي الصحفية الكثيرة، ثانيها جوعي لكشف المزيد عنها وعن لياليها الشجية وصباحاتها المشرقة ومساءاتها المتلألئة، وهو أمر لا يتأتى إلا بمزيد من البحث والقراءة والكتابة عنها».

ويمضي مناع إلى السبب الثالث الذي دعاه للكتابة: «ذلك الإحساس المفرط بثقل الدين الذي طوقت به جدة عنقي حباً ورعاية وعناية ولما أسدده بعد، رغم كل ما فعلته من أجلها سواء أكان كبيراً في عيون البعض أو متواضعاً عند الأكثرية أو العكس».

استعاد مناع –كما يسرد– كل تلك الأمكنة، التي تستحق اللثم والعناق وشم عبق رائحتها التاريخية، عبر لمحات من سير حياة الآباء والأعمام والأجداد، ومواقفهم الإنسانية، التي عاش تفاصيلها حيث يقول: «إنما كانت تلك الأحاديث تعبيراً تلقائياً عن خلالهم وطباعهم التي فطروا عليها دون تزييف أو تصنع لتشكل بعفويتها وتلقائيتها ميراثها الحضاري في النهاية، ووجدان حارات جدة وحميميتها وثقافتها إجمالاً».

تاريخ نصف قرن أو أزيد قليلاً رواه مناع بسند صحيح، كما يصنف أهل الحديث أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، أعاد مناع تاريخ جدة، تاريخ طفولته الرمزية التي عاشها وأحبها في حارات جدة وأزقتها وبرحاتها وأسواقها وبين أهلها وناسها، في روح ذلك الزمان.

حارات جدة الأربع

يستعير مناع قصيدة ابن برحات جدة وصهبتها الشاعر أحمد قنديل في مدخل كتابه التي قال فيها:

لك يا جدة الحبيبة في القلب
مكان محببٌ مألوفُ
طاف فيه صدى الجديدين بالأمس
وما زالت الحياة تطوف

كان لجدة القديمة أربع حارات رئيسية داخل سورها (قبل أن يزال في 1947)، حيث كانت أسماء الحارات تحمل دلالات جغرافية، فحارة (الشام) في الشمال، وحارة (اليمن) في الجنوب، وحارة (البحر) يقع ضلعاها الغربي والجنوبي على البحر مباشرة، إلا حارة (المظلوم) شذت عن هذه التسميات الجغرافية في طبيعتها، لتقول إحدى الروايات إن السبب في تسميتها بهذا الاسم أن رجلاً في قديم الزمان قُتل ظلماً بسبب تعثره في سداد مبلغ من المال استدانه من شخص آخر.

أما الرواية الثانية لتسمية (المظلوم) لا تخلو من الطرافة والغرابة، وهي تحمل صورة من صور الدروشة التي كانت تسود المجتمع في الأزمان الغابرة، إذ تقول الرواية إن الحارة سميت باسم أحد أولياء الله المشهورين بعلمهم وصلاحهم وهو الشيخ عفيف الدين بن عبد الله المظلوم، الذي كان له قبر داخل السور، وإن النذر كانت تأتيه من جميع الجهات، بل إن كل سفينة تأتي من الهند واليمن أو بر العجم وليس فيها نذر باسمه يحصل لأهلها غاية التعب ونهاية الندم، والأعجب – والحديث للمؤلف– هو قول تلك الراوية: «إن من حلف عند قبره حانثاً حل به العطب والسقم، ولهذا كان يقول أهل جدة القديمة: من أراد تغليظ الإيمان على الخصوم.. يُحلِّفهم عند قبر الشيخ المظلوم».

أول سور بني في جدة بناه أحد أحفاد إمبراطور فارس (أنوشروان يزدجر) يدعى فيروز بن يزدجر، وكان عرضه عشرة أشبار، وبه أربعة أبواب وحوله خندق مملوء بالماء، وقيل إن الصحابي سلمان الفارسي وأهله سكنوها وبنوا سورها الأول –وإن كان لا يوجد في التاريخ الموثق ما يشير إلى ذلك– ولكن المؤكد أن ناصر خسرو –أحد قادة الفرس– شهد سورها الثاني الذي بناه عام 1105. كما أن ابن جبير الرحالة الشهير شهد سورها الثالث عام 1183.

ثم أعاد بناءه القائد حسين كردي، بناءً على تكليف من سلطان مصر المملوكي (قنصوه الغوري) عام 1605، وهو الذي أجمع المؤرخون على أنه أعظم عمل معماري في تاريخ جدة، بمحيطه الذي يبلغ ثلاثة آلاف ذراع، وارتفاعه الذي بلغ 12 ذراعاً، وأبراجه الستة التي يبلغ ارتفاع كل منها خمس عشرة ذراعاً، إلى جانب خندق مملوء بالماء حوله، لحماية المدينة من الغزو.

هنا يتحدث في هذه الجزئية مناع بعد إزالة السور بين عامي 1947 و1948: «والذي علقت بذاكرة طفولتي منه صورة ضلعه الشمالي وباب جديد، وقد كان يتوسطه عندما كنا نعبره صغاراً في يوم الوقفة (في إشارة إلى يوم عرفات بالحج) للذهاب إلى بحيرة (الطين) أو بحيرة الأربعين حسب مسماها الحديث».

80 شخصية في الذاكرة

اتبع المؤرخ مناع أسلوب التحدث عن الشخصيات التي ضمنها كتابه ضمن منهجية التقسيم الفهرسي الداخلي والتي تقارب الثمانين شخصية، وهذا رقم كبير بالمقارنة مع التدوينات التي تحدثت عن قلة قليلة من أعيان هذه المدينة مغفلة سيّر الكثير من الشخصيات التي رسخت في الذاكرة الشعبية لجدة القديمة. وما يحسب للمؤلف أنه استطاع تشكيل فسيفساء من (الطراز الإنساني)، معتمداً على (ذاته الحكاواتية) ولكن بخلفية واقعية، خاصة أن سير الشخصيات الواردة لم تكن معروفة في التاريخ الحديث لهذه المدينة التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم :(مكة رباط، وجدة جهاد).

وقد تضمن الكتاب أيضاً فصلين كاملين عن التجار والبائعين الذين اشتهروا في الأسواق الشعبية القديمة لجدة كـ(السوق الكبير، وباب شريف). كما يتميز الكتاب بميزة أخرى وهي أنه احتوى صوراً قديمة للشخصيات التي تحدث عنها وإن اختلفت درجة وضوحها بين صورة وأخرى.

يروي مناع –على سبيل المثال– أنه خرج من بيوت حارة الشام بنصفيها الشرقي والغربي ومن رواشينها القديمة ومجالسها وأكشاكها سفراء

كفؤاد ناظر، ووزراء كعبد الوهاب عبد الواسع، ورجال أعمال كالشيخ محمد صالح باعشن، وأعلام في الفكر كمحمد حسن عواد، وأعلام في الثقافة كمحمد علي مغربي، وأعلام في الصحافة كمحمد سعيد باعشن.

كانت حارة الشام المكان الأفضل للسفارات والقنصليات الأجنبية والإسلامية، حيث أقامت بريطانيا العظمى أول قنصلية لها في جدة عام 1216هـ، باستثناء القنصلية الباكستانية التي حلت محل القنصلية الهندية في حارة البحر بعد تقسيم الهند عام 1947، والقنصلية السوفياتية قبل قطع علاقاتها مع المملكة في الثلاثينيات الميلادية من القرن الماضي، وكان مقرها في بيت الشيخ رشدي ملا نيازي.

ينتقل كتاب مناع من قصة لأخرى، حيث تحدث عن العطار الأول في جدة الذي يدعى الشيخ حامد شلبي، وكان دكانه الشهير في مدخل سوق العلوي من الغرب أشبه ما يكون بعيادة طبية يقصده المريض أو أحد من أهله، ليصف للشيخ حامد الأعراض التي يشكو منها، وكان أفراد المجتمع المحلي يذهبون إليه رغم وجود المستشفى المركزي الوحيد (مستشفى باب شريف) الذي بناه العثمانيون في جنوب شرق جدة.

السرد التوراتي وتاريخ فلسطين

عرض/ زياد منى

صاحب هذا الكتاب توماس طومسون عرفه عالم البحث العلمي في تاريخ فلسطين القديمة وبالتالي الأبحاث التوراتية قبل نحو عشرين عاماً، عندما نشر كتابه الحديث (تاريخ بني إسرائيل اعتماداً على المصادر المكتوبة والأثرية) الذي أثار عاصفة في ذلك المجال العلمي، لأنه طرح فيه آراء تجديدية بمقياس ذلك الزمن، ومنها رفض النظرة التقليدية التي تعتمد كتاب اليهودية والمسيحية المقدس، مرجعاً تاريخياً.

سبب العاصفة لم يكن الآراء بحد ذاتها فقط، وإنما أيضاً أنها أتت من داخل الوسط العلمي نفسه، وهو ما يعد في نظر حراس الهيكل –إن صح التعبير– تمرداً وتطاولاً على الخطاب الرسمي المعتمد الذي يؤهل شخصاً ما للحديث في المادة.

يُذكر أن ذلك العالم الكبير فقدَ منصبه

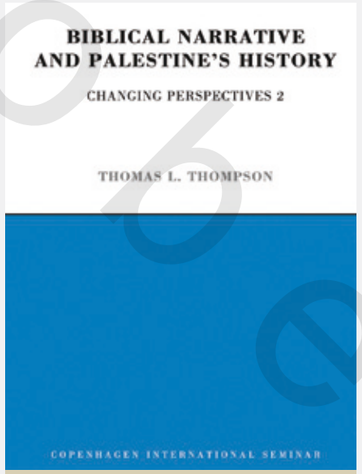

- الكتاب: السرد التوراتي وتاريخ فلسطين– سلسلة منظور متغير 2
- المؤلف: طوماس طومسون وتقديم فيليب ديفس
- عدد الصفحات: 358
- الناشر: إكوينكس، المملكة المتحدة
- الطبعة: الأولى 2013

التدريسي في الجامعة الأميركية التي كان يعمل بها واضطر لمغادرة بلاده، وحطت به الرحال في الدانمارك حيث بدأ التدريس في كلية اللاهوت بجامعة كوبنهاغن إلى الآن، واستمر في نشر آرائه الحداثية.

الكتاب

يضم الكتاب مجموعة من الدراسات أنجزها المؤلف عبر فترة تطوره العلمي، نشر القسم الأكبر منها في دوريات مختلفة وعمل هنا على تعديل بعضها، وبعضها نشره للمرة الأولى.

الأبحاث التوراتية أو لنقل مجازاً الأبحاث الكتابية، نسبة إلى كتاب اليهودية والمسيحية المقدس، موضوع على جانب كبير من التعقيد، والعمل فيه جديًا وإبداعياً يشترط معرفة الكاتب معرفة عميقة بتاريخ المشرق العربي القديم وممالكه وتاريخ الإغريق والرومان في المنطقة، إضافة إلى لغات تلك الممالك وما يرتبط بالموضوع من معارف علمية مثل علمي الآثار والطبوغرافيا وما إلى ذلك، وهذا ما يجعل عدد علماء التوراة محدوداً للغاية، وقصر البحث فيه على حلقة صغيرة من العلماء الذين تمكنوا من تمرير تحليلاتهم التي أثبتت التنقيبات الأثرية اللاحقة خطأها.

مقدمة الكتاب كتبها العالم الإنجليزي الكبير فيليب ديفس صاحب العديد من المؤلفات وكذلك المقالات عن هذا الموضوع والتي نشرها في الدوريات المتخصصة، وكان أكثرها إثارة للجدل رأيه بأن التوراة كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد على أبعد تقدير، وأن ما يعرف باسم نقش حزقيا الموجود حالياً في متحف بإسطنبول يعود إلى الفترة الهيلنستية من تاريخ فلسطين، أي إلى الفترة ذاتها وليس إلى القرن السابع قبل الميلاد. المؤلف بدوره يشكك في محتوى العديد من النقوش التي يحلو لبعض علماء التوراة التقليديين عدها إثباتات على صحة مقاربتهم للنصوص، ومن ذلك على سبيل المثال نقش ميشع، ويحسم بأنه نص دعائي وليس تاريخياً، ولم يكن قصد كاتبه سوى الترويج لملكهم لا غير، علماً بأنه ساد رأي عند اكتشافه بأن بدو شرقي فلسطين –أي ما عرف باسم عبر الأردن، أو شرق الأردن– زوّروه!! نظراً لتشعب موضوعات الكتاب الموزعة على ١٩ مقالة، فإن مقدمة فيليب ديفس الذي لا يتفق بالضرورة مع كل أطروحات المؤلف، تعد أساسا لأنه يشرح فيها بلغة سهلة مبسطة، كتابات طومسون وتطورها، ومواقف علماء التوراة منها، وما وصلت إليه الأبحاث النظرية والتطبيقية بالخصوص.

وهو يلفت انتباه القارئ إلى أن طومسون لا يتعامل مع النصوص التوراتية بوصفها نصوصاً تاريخية، وإنما بوصفها نصوصاً أدبية تعبر عن شوق روحي أكثر من أي أمر آخر، وأن التاريخ فيها عندما يحضر، وجب النظر إليه من منظور مختلف عن السائد، ويقدم أسبابا إضافية إلى رأي كاتب المقدمة.

في الوقت نفسه فإنه يشدد على أن كتاب طومسون الأكثر شهرة فضح المشاكل الكبيرة التي تحيط بالأبحاث التوراتية التقليدية وقدم رؤى بديلة لها. نقول هذا ونذكر أن هذا العلم معروف بصفته عش الأفاعي أو عش العقارب، لأن أي خطأ يرتكبه الباحث يعد قاتلاً وينهي علاقته بالمادة والأبحاث.

التوراة ليست تاريخاً

في عرضنا لهذا الكتاب المهم سنتجنب الخوض في تفاصيل كل بحث لأن شرح مادته يتطلب من القارئ معارف متخصصة، وهو ما دفعنا إلى التركيز على نقاط نرى أنها الأكثر إثارة للاهتمام.

وفي مقدمة ذلك أن المؤلف وزملاءه من

كبار العلماء مثل كيث وايتلام صاحب كتاب (تلفيق إسرائيل التوراتي)، و(طمس التاريخ الفلسطيني)، وكتابه الجديد (إيقاعات الزمن.. إعادة ربط تاريخ فلسطين) الذي صدر للتو، وفيليب ديفس ونيلز لمكه وفان سيترز وغيرهم، خصوصاً ممن عملوا في هذا الموضوع مطلع القرن الماضي وكانوا متحررين من هيمنة الخطاب التقليدي.. حسموا بأن التوراة ليست تاريخاً، وأن أقساماً كثيرة منها منتحل من حضارات الشرق العتيقة ومن الفلسفة الإغريقية والهلنستية، وأن الأبحاث الأثرية في مختلف بقاع المشرق العربي تثبت صحة هذا الرأي. وتوماس طومسون يقدم الأدلة العلمية التي تدعم اجتهاداته، وفي الوقت نفسه ينقض صحة الآراء المخالفة.

من منظور المؤلف فإن مختلف الأسفار والقصص والمصطلحات التي ناقشها في كتابه نصوص روحية ونصوص ميثولوجيا وليست تاريخاً. لكن كاتب المقدمة يقول إن الحسم في هذا الأمر يتطلب شرح أسباب الابتعاد عن أطروحات طومسون وما البديل لما كتبه. بكلمات أخرى، إذا تمسك علماء التوراة أو علماء الكتاب بنظرتهم التاريخية، فإن آراء طومسون التي طورها عبر عدد كبير من الأبحاث تجبرهم على النظر إلى آرائهم في تاريخية النصوص من منظور آخر.

أما طومسون فلا يهاب الخوض في موضوعات تعد في ظن البعض من المحرمات، ونعني بذلك السياسة ودور كيان العدو في تحوير التاريخ وتزويره لصالح روايته الصهيونية، حيث يعمل على تغيير أسماء مواقع في فلسطين ضارب عمقها في التاريخ القديم لتسويغ احتلاله أرض فلسطين، والوحي بأن كيانه استمرار لمملكتي بني إسرائيل، وأن مدينة القدس كانت المركز الروحي لليهودية.

بل إنه يجزم بأن مواقع أخرى في مختلف بطاح المشرق العربي كانت ذات أهمية روحية تفوق تلك التي يفرضها العدو الصهيوني على القدس، ومنها على سبيل المثال عَـرَق الأمـير في شرق الأردن وجزيرة الفيلة في صعيد مصر ومدينة تل المقدم أيضاً في مصر التي عرفت قديماً باسم ليونتوبوليس. ويمكن إضافة مواقع جغرافية عديدة أخرى إلى القائمة، ومنها الدامور الواقعة جنوب العاصمة اللبنانية.

وهذا التزوير المسيس لتاريخ فلسطين هو ما جعل المؤلف يخصص قسماً من كتابه للمادة بعنوان (نظرة صهيونية للماضي) حيث عـراه، وربط ذلك كله بالتطهير العرقي الذي مارسته الدولة الصهيونية بحق أهـل البـلاد، وكل الممارسات العنصرية ذات العـلاقة، حيث يحـاول العدو الصهيوني خلق تاريخ جديد يمنح كيانه شرعية تاريخية دينية.

الآن وجب التشديد على وجود أخطاء في ترجمة تعريفات عربية محددة ذات علاقة بالمادة، وهي مهمة لفهم الكتاب ومحتواه والأفكار المرتبطة بالمادة. فكافة اللغات اللاتينية تميز الديانة اليهودية بين مزدوجتين، واليهود، علمًا بأنه يوجد أكثر من يهود!

اسم الديانة في الإنجليزية على سبيل المثال (judaism) وهو منسوب إلى مملكة يهوذا التي لم يعثر على أثر لها في فلسطين، وإن حوَت نقوش آشورية أسماء قليلة تشبه ما ورد في التـوراة. أمـا اليهود (jews) فكلمة فـرنـسـيـة الأصـــل ولا علاقة بين الاسمين أو المصطلحين.

ومن المهم التشديد على حقيقة أن اليهودية ديانة تقوم على لامركزية التعبد، وهـي اتجـاه نشأ في القـرن الثاني الميلادي في مدينة يبنة الفلسطينية المحتلة على يد الفريسيين الذين شكلوا إحدى طوائف في ديانة أطلق عليها علماء مطلق القرن الماضي المؤسسون لهذا التهذيب العلمي، اسم (اليَهْوِيَّة)، نسبة إلى إله التوراة يَهْوَه.

رغم طبيعته التخصصية، وآراء مؤلفه العالِم الإشكالية أحياناً، يبقى هذا الكتاب إسهاماً مهماً في كشف آراء سياسية وفكرية تدثرت بالعلم لمنح ادعاءاتها شرعية منعتها عنها الحقائق التاريخية العنيدة.

ويا ليت العرب يلتفتون إلى هذا التهذيب العلمي ودراسته والإسهام فيه علمياً، ذلك أنه يمس تاريخنا وبلادنا، ومرتبط وثيق الارتباط بمستقبل بلادنا التي تعد –من منظور الرأي السائد في الدراسات التوراتية– أرض التوراة لا أكثر.

فالكتّاب العرب رغم كل ما نشره بعضهم، أبعد ما يكونون عن امتلاك المعارف العلمية التي تؤهلهم الخوض في هذا الموضوع الشائك والخطير، وكتاباتهم في هذا المجال العلمي تبقى مجردة من أي منهجية علمية، وأي ادعاء مغاير غير صحيح. وليتنا ندرك أنه ثمة تخصصات في الأبحاث العلمية وأنها لا تخضع لرأي معجب أو رافض، وأن تقويم أي عمل يجب أن يكون صادرًا من أهل الاختصاص، ووحدهم فقط.

الصورة .. من التصوير الضوئي إلى الرقمي

الصورة اللغة الأسهل والأسرع في العالم، التي لا تحتاج إلى ترجمة. إنها صلة وصل مباشرة بين الشعوب كلها. كذلك تعد الصورة اللغة المشتركة لكل أنواع الصحافة المكتوبة والمرئية، وكذلك في الصحافة الإلكترونية والمدنات.

لم يكن التصوير الضوئي في يوم من الأيام منذ اختراعه هواية جذابة للملايين مثلما هو الآن، وذلك بعد نجاح العلماء في تخطى الحاجز الأسود والأبيض وتقديم معجزتهم الفيلم والورق الحساس الملون. هؤلاء العلماء الذين سطرهم التاريخ كرواد في تطوير التصوير وإثراء العالم بالكاميرات المختلفة الاستخدام، والكاميرا في نظر عشاقها هي القيثارة التي يعزف على أوتارها نغمات متباينة من الضوء واللون والظل.

يعتبر أبو الحسن ابن الهيثم أول من أسس علم التصوير الضوئي من خلال استخدام القمرة المظلمة، إذ كان بطلي يعتبر أبو الحسن ابن الهيثم أول من أسس علم التصوير الضوئي من خلال استخدام القمرة المظلمة، إذ كان بطليموس، وإقليدس وكلاوديوس يعتبرن عملية الإبصار تتم من خلال إرسال العين أشعة ضوئية، فكان أول من أدرك أن العين لا ترسل أشعة ضوئية بل تنعكس الأشعة على العين. قام بتجربة القمرة المظلمة عن طريق ثقب يبعث الضوء في مكان مظلم، نقل صورة من الخارج إلى شاشة داخلية، استنتج أنه كلما صَغُر ثقب القمرة كلما كانت الصورة أفضل. موس، وإقليدس وكلاوديوس يعتبرن عملية الإبصار تتم من خلال إرسال العين أشعة ضوئية، فكان أول من أدرك أن العين لا ترسل أشعة ضوئية بل تنعكس الأشعة على العين.قام بتجربة القمرة المظلمة عن طريق ثقب يبعث الضوء في مكان مظلم، نقل صورة من الخارج إلى شاشة داخلية، استنتج أنه كلما صَغُر ثقب القمرة كلما كانت الصورة أفضل.

وعُرف التصوير للمرة الأولى في القرن الرابع قبل الميلاد وتحديداً في عهد(أرسطو الأول) وقد عُرف باسم الغرفة المظلمة. ابتدأت المرحلة الأولى الكبرى لتاريخ التصوير مع استعمال الغرفة المظلمة من قبل الفنانين الإيطاليين في القرن السادس عشر ومن الجائز أن يكون أكثر الرسامين المشهورين في عصر النهضة قد استعملوها. فقد لاحظ (ليوناردو دافنشي) إمكانات الغرفة المظلمة في عام 1490 عندما أوصى بمراقبة المشاهد المضيئة التي ترتسم داخل غرفة مظلمة للأشياء الخارجية والتي تتكون بفعل أشعة الشمس التي تمر عبر ثقب في جدار الغرفة.

عبر السنين الخمسين التي أعقبت ذلك أدخل (جيروم كـاردان) في عـام 1550 على هـذا المبـدأ الأساسي العدسة البصرية التي كانت تستعمل لتصحيح أخطاء النظر، وكانت هذه العدسات محدبة الوجهين. التحسين الثاني الذي طرأ على المبدأ هو إدخال الحدقة الذي يعتقد أنه من اختراع (دانييل بربارو) في عام 1930. وقد أضيفت هاتان الآليتان (العدسة والحدقة) للغرفة المظلمة لزيادة وضوح الصور، بعدها حاول الفنانون الحصول على غرفة مظلمة قابلة للحمل، إن تطوير الغرفة القابلة للحمل هي المرحلة الأساسية التي أوصلت إلى الآلة الفوتوغرافية التي تتضمن العناصر الأساسية، العدسة والحدقة، والسطح الذي تتشكل عليه الصورة.

مولد التصوير الضوئي كان على يد (داجير)، وقد تم الإعلان عن تصميم وتنفيذ أول كاميرا صندوقية من الخشب في السابع من كانون الثاني/يناير عام 1839.

يحدد المؤرخون ظهور التصوير الفوتوغرافي في بتلك الصورة التي التقطها جوزف نيسافور تيابس عام 1814، لمشهد من مدينة باريس. ولكن الصورة التي التقطها آنذاك (وهي أقرب إلى أن تكون شبح صورة) تطلَّبت بضعة عقود من الزمن لكي ينضج الاختراع.

ولقد كان الفضل في ظهور هذه الكاميرا لما قدمه علماء كثيرون، منهم الانكليزي (هنري فوكس تالبوت) عام 1830 الذي تمكن من الحصول على صورة موجبة من سالب زجاجي بواسطة محاليل كيميائية وليس بغمس السالب الورقي في الزيت ليصبح شفافاً بعض الشيء، وأيضاً العالم (كلارك ماكسويل) الذي فتحت أبحاثه الباب لإنتاج الفيلم الأبيض والأسود وبعد ذلك الملون.

في العام 1888 أصدر (جورج ايستمان) آلة الكودك الشهيرة: «أضغط الزر ونحن نقوم بالباقي»، وهذه الكاميرا هي أول كاميرا عبارة عن صندوق مكعب من خشب وجلد مزودة بفيلم

ملـفـوف، وكـان على المصـور أن يرسل الكاميرا كلها إلى الشركة لتظهير الصورة.

وفي العام 1896 نزلت إلى الأسواق الأمريكية أول كاميرتين صغيرتين للجيب، وظهرت أول كاميرا ذات منظار في عام 1916. وفي أوائل الأربعينيات ظهرت الكاميرات العاكسة وحيدة العدسة وهي المفضلة لدى معظم المصورين المحترفين، أما الكاميرات ذات الفيلم 110 فلم تظهر إلا في عام 1971، واليها يرجع الفضل في انتشار التصوير بين قطاع عائلي كبير، وبدأ واضحاً في هذا الوقت تحول الهواة عن الفيلم السالب الأسود والأبيض إلى الملون، والذي تواجد في بالأسواق منذ عام 1942. الفيلم كودا كورم ظهر بالأسواق عام 1936، وأجفا كروم 1938، وفوجي كروم 1948.

وظهرت أول كاميرا للتصوير الفوري أسود وأبيض من شركة (بولا رويد) في عام 1947،